

الآداب الباطنية للصوم

إعداد: علي حمود

روح الصوم وسرّه والغرض الأصلي منه: التخلّق بخلق من أخلاق الله تعالى: الصمديّة، والإقتداء بالملائكة في الكفّ عن الشهوات بقدر الإمكان. وهذا إنّما يحصل بتقليل الأكل عمّا يأكله في غير وقت الصوم ربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدّة شهور. ما يلي توجيهات تأسيسية في ضوء النص المعصوم حول الآداب الباطنية للصوم مقتطفة من كتاب «جامع السعادات» للفضيلة العليم: الشيخ محمّد مهدي النراقي قدس سره.

التي كان يأكلها كلّ ليلة لو لم يصم، من دون ضمّ ما يأكل في النهار إليه، حتى ينتفع بصومه. والخاص: إنّ روح الصوم وسرّه والغرض الأصلي منه: التخلّق بخلق من أخلاق الله تعالى، أعني الصمديّة، والاقْتداء بالملائكة في الكفّ عن الشهوات بقدر الإمكان، وهذا إنّما يحصل بتقليل الأكل عمّا يأكله في غير وقت الصوم، فلا جدوى لمجرّد تأخير أكله، وجمع أكلتين عند العشاء.

ثمّ لو جعل سرّ الصوم ما يظهر من بعض الظواهر من إدراك الأغنياء ألمّ الجوع والانتقال منه إلى شدّة حال الفقراء، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات، فهو أيضاً لا يتمّ بدون التقليل في الأكل.

* ما ينبغي للصائم عند الإفطار

ينبغي لكلّ صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً، معلّقاً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين، أو يردّ عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها.

* درجات الصوم

للصوم ثلاث درجات:

الأولى: صوم العموم: وهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب.

الثانية: صوم الخصوص: وهو الكفّ المذكور، مع كفّ البصر والسّمع واللسان واليد والرّجل وسائر الجوارح عن المعاصي. وعلى هذا الصوم تترتّب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع.

الثالثة: صوم خصوص الخصوص: وهو الكفّ المذكور، مع صوم القلب عن الهمم الدنيّة، والأخلاق والأفكار الدنيويّة الرديّة، وكفّه كلياً عمّا سوى الله تعالى.

ينبغي للصائم أن: * يغضّ بصره عن كلّ ما يحرم النظر إليه أو يكره، أو يشغل القلب ويلهيّه عن ذكر الله تعالى. * ويحفظ اللسان عن جميع آفاته. * ويكفّ السمع عن كلّ ما يحرم أو يكره استماعه. * ويكفّ بطنه عن الحرام والشبهات. * ويكفّ سائر جوارحه عن المكروه.

وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتّب كمال الثواب عليه أخبار كثيرة.

وينبغي أيضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ، إذ ما من وعاء أبغض إلى الله عزّ وجلّ من بطن مليء من حلال.

والسرّ في تشريع الصوم قهر عدوّ الله، وكسر الشهوة والهوى، لتتقوى النفس على التقوى، وترتقي من حضيض وحظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبّه بالملائكة الروحانية.

وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الإفطار ما فاتته ضحوة نهاره، لا سيما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استمرت العادات في هذه الأعصار، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدّة شهور.

ولا ريب في أن المعدة إذا خليت من ضحوة النهار إلى العشاء، حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها، ثمّ أطعمت من اللذات، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمّع [الصائم] ما كان يأكل ضحوة إلى ما يأكل ليلاً، وأكل جميع ذلك في الليل مرّة أو مرّتين أو أكثر، زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعثت من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عاداتها، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم، أعني إضعاف القوى الشهويّة التي هي وسائل الشيطان.

فلا بدّ من التقليل، وهو أن يأكل في مجموع الليلة أكلته

الإعراض عن الدنيا هو السبيل إلى الدخول في ضيافة الله



إنّ الذي يقود الإنسان إلى ضيافة الله هو التخلّي عمّا عدا الله، ومثل هذا غير مُتيسّر لكلّ إنسان، بل تيسّر لأُناس معدودين في طليعتهم رسول الله ﷺ. إنّ التوجّه القلبيّ لمبدأ النور، والإعراض عمّا وراء الله، هو الذي جعل من النبيّ الأكرم مُستحقّاً لضيافة الله، ولنزول القرآن على قلبه مرّةً واحدةً وبسهولة.

وإنّ أحد احتمالات الليلة المباركة، بنية الرسول الأكرم نفسه التي هي مشكاة نور الله، كما أنّ ثمة احتمالات أخرى.

المهم، إدراك هذا المعنى: وهو أنّ مراتب كمالات الإنسان للولوج إلى ضيافة الله، كثيرة ويجب البدء بالمقدّمات.

ومن هذه المقدّمات، أن لا يكون هناك توجّه لغير الله، وعدم رؤية غير الله، والتخلّي عن كلّ شيءٍ غيره جلّ وعلا.

وهنا ينبغي القول بأنّ هذا الأمر مطلوبٌ من الناس جميعاً، فإذا أرادوا الإلتحاق بضيافة الله، يجب عليهم الإعراض عن الدنيا - قدر استطاعتهم - وإدارة ظهورهم لها.

ولكن بالنسبة للأسرة العلمائيّة والتي تضمّ فئة الوعاظ أيضاً، فإنّ هذا الإعراض مطلوبٌ أكثر.

الإمام الخميني قدس سرّه

ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر.

وحاصل هذا الصوم إقبالاً بكنهه الهمة على الله، وانصرافاً عن غير الله، وتلبّسٌ بمعنى قوله تعالى: ﴿... قل الله ثم ذرهم..﴾ الأنعام: 91.

وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهدة واللقاء، والفوز بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد.

وإلى هذا الصوم أشار مولانا الصادق (عليه السلام)، حيث قال: «قال النبي ﷺ: الصوم جنة، أي سترٌ من آفات الدنيا، وحجابٌ من عذاب الآخرة، فإذا صُمّتْ فانو بصومك كفّ النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة المرضى، لا تشتهي طعاماً ولا شراباً، وتوقع في كلّ لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله، قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به.»

والصوم يُميت مُراد النفس وشهوة الطبع، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن، والشكر على النعم، والإحسان إلى الفقراء، وزيادة التضرّع والخشوع والبكاء، وحبل الالتجاء إلى الله، وسبب انكسار الهمة، وتخفيف الحساب، وتضعيف الحسنات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعدّ. وكفى بما ذكرناه لمن عقّله ووفّق لاستعماله.

* من صام شهر رمضان إخلاصاً لله

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقرباً إليه، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق، وكفّ ظاهره عن المعاصي والآثام، واجتنب عن الحرام، ولم يأكل إلا الحلال، ولم يفرط في الأكل، وواظب على جملة من التوافل والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه، استحقّ المغفرة والخلاص من عذاب الآخرة، بمقتضى الأخبار المتواترة.

ثمّ إن كان من العوام، حصل له من صفاء النفس ما يُوجب استجابة دعوته، وإن كان من أهل المعرفة، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه فينكشف له شيءٌ من الملكوت، ولا سيما في ليلة القدر، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار، وتفيض على القلوب الطاهرة الأنوار، والمناطق والعمدة في نيل ذلك، تغليل الأكل بحيث يحسّ ألمّ الجوع، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلّاةً من الطعام، فهو محجوبٌ عن عوالم الأنوار، ويستحيل أن ينكشف له شيءٌ من الأسرار.